رواية

أرضُ الدهب

د. محمد محمود أسعد

مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأُولى

١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

كافة الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب إلا بموافقة خطية.

الإصدار: رواية. **أرض الدهب**

المؤلف: د. محمد محمود أسعد

رقم الإيداع القانوني:١٣٤١٢/ ٢٠٢٣

الترقيم الدولي:٠٩/ ٩٨/ ٧٨٣/ ٩٧٧/ ٩٧٨

الناشر: مؤسسة الأمة للطباعة والنشر

الناشر

مؤسسة الأمة للطباعة والنشر

جمهورية مصر العربية

هواتف: ٣٥٧١٢٢٣ - ٠٤٨ - ٠٠٢

المبيعات: تحويل داخلي ١٣

الفاكس: تحويل داخلي: ١٦

إهداء

الى كل من عاش في أرض الدهب وعاشت فيه...

أُهدي إليه هذا العمل

أخوكم محمد

إضاءة

"أرض الدهب" ليست مجرد رواية اجتماعية تحكي بطريقة السرد والحوار قصة رجل أتت عليه الايام فأثقلت كاهله، اجتمعت عليه مغاليق الأرض وأحكام الغاب، وتنمرت عليه عقول متحجرة ورؤوس يابسة أرغمته على ترك داره وأهله. انما هي أيضاً حكاية كل انسان ترك بلده مرغماً بما له فيها من كنز بشري وقصص وحكايات وأجبر على السير في درب طالت عليه أعوامه واسودت فيه لياليه فأصبح له ماضيه مجرد ذكريات يعود إليها مستذكرا وناحباً كلما ضاقت به الأحوال واختنقت به العبر.

"أرض الدهب" رواية تسرد حكاية رحيل رجل كانت بداية دربه حيرة أعياه فيها المسير فكانت له المدينة أولى المحطات، لكن تبعثرت أحلامه وضاعت أمانيه بالاستيطان فيها.

عزاء الراحل كان في نصيحة كانت أشبه له برمية من دون رام اوصلته بعد حيرة الى أرض كانت له دهباً لما فيها من مزايا وسمات شجعته على الاشتغال بأرضها والعيش بين أهلها الطيبين فشمسها له أشرقت، وقمرها له استنار فأزهرت أيامه وتنعمت عيشته فيها قبل ان يُداهمه خريفُ عمر بعد فراق أدمى قلبه وأوجف حاله ورماه رميماً في القاع.

في "أرض الدهب" تشابهت بدايات التهجير بين قصة رحيل الرجل وبين قصص الاغتراب الشائعة، وتباينت النهايات.

رواية "أرض الدهب" ليست قضية ذاتية، وإنما هي قضية كل فرد وعائلة نهشت فيهم مخالب الظلم والحاجة فعاشوا جل أيامهم في دياجير االتهجير.

مع بالغ الود

المؤلف

***

(١)

مقهورون، كوروُد ذابلة جفّت في عروقها ماءُ الحياة، يائسون كأعجاز متعبة أنهكتها قساوة الأيام وظلم الأنام، فرائص النازحين ترتعش وهم يمتطون راحلة النزوح في هدأة أجيج نار إن استمرت ستحرق الأخضر واليابس عندهم، رحلوا بعد أن فقدوا أمل الصلح والبقاء في ربوع ضيعتهم بين أهلهم وجيرانهم.

ظلم مقيت كان يتربص بأبي محمد المعراوي فغيّب تفكيره وأجبره على السير في اتجاه واحد إلى خارج ضيعته (س)، تَعنت بيت المكحول حوّل كل محاولات الصلح والاسترضاء إلى كومة هشيم أضرمتها رؤوسهم اليابسة وفرضت على الرجل الانصياع لرغباتهم في المضي قدماً في طريق الخروج من الضيعة، أجنحته كانت من ورق وظهره كان من هواء، فما كان على ذلك الطائر الجريح إلا أن يُرفرف واطئاً مكسور الجناح منسحباً من فضائه الملغوم قبل أن تنال منه رمية صياد متربص.

خاب أمل النازحين وتدحرجت أمانيهم في دياجير الخيبة فاستسلموا لتهجير يتمنونه أن يكون قصيراً حتى ولو كان فوق أشواك بائسة تدمي قلوبهم وقلوب

مودعِيهم رغم كل ما كان في المنطقة وقتئذ من مهالك حرب عُرفت منها البدايات وغابت عن الجميع النهايات والنتائج.

في العاشر من رمضان الموافق للسادس من تشرين أول/ أكتوبر عام ١٩٧٣ خيّمت المفاجأة على المنطقة العربية برمتها، في كل بيت ومجلس كانوا يتحدثون عن الحرب البادئة وقتئذ، وكيف أنها ستتوسع وتُحدق بالجميع بعدما اندلعت نيراها اللاهبة حينما باغت العرب لأول مرة عدوهم الأول بتنفيذ هجومين مفاجئين ومتزامنين على قواته أحدهما نفذها الجيش المصري على جبهة سيناء المحتلة، والثانية قام بها الجيش السوري على جبهة هضبة الجولان.

في ريف إدلب الجنوبي، وبالتحديد في ضيعة (س) كان هنالك وجوم يحف بأهلها من كل جانب، كل شيء كان فيها قاطباً ومكفهرا، ففي ظهيرة اليوم الأخير من ذاك الشهر.. تشرين أول ١٩٧٣ بعد عيد الفطر كان أهل الضيعة الصغيرة تلك على موعد من الكآبة تجسد جلياً في وجوه مودعي أبا محمد المعراوي وعائلته الذين كانوا بانتظار وصول سيارة تنقلهم إلى كراج باصات حلب في المدينة القريبة منهم، أبداً لم يكن ذاك الوجوم الذي سيطر على الضيعة يومها بتأثير أجواء الخريف الكئيبة ولا أخبار الحرب الدائرة في الجنوب السوري، إنما كان لشدة أخرى تعرض لها الرجل أرغمته وعائلته على ترك ضيعتهم وما فيها.

كان أبو محمد فلاحا بسيطاً من عائلة قليلة العدد ضعيفة الإمكانيات، يمشي الحيط الحيط ويقول يا رب السترة، يتعيش من كد يمينه، يعيش في ضيعته الصغيرة (س) التي شكلت الرجوم الحجرية حيزاً كبيرا من أراضيها، كانت تلك الرجوم وأحجارها أشبه بلعنة تُبعد أي تنمية أو تطوير عن الضيعة وأهلها الذي راح عددهم يتناقص يوما بعد آخر بسبب هجرة مقصودة لكسب رزق ولو بسيط داخل أو خارج حدود الوطن.

لم يُعكر الرجل صفوَ لحظته إن كان في حياته أي صفوة فكل ساعة عنده كانت بوضع مختلف ولها "ملائكتها" كما يقولون، لم يحاول الإحساس بمرارة الحياة لأنه كان يعيش فيها فعلاً طوال الوقت، آل على نفسه ألا يفكر إلا في اللحظة التي هو فيها "طنش تعش" ليس إهمالاً وإنما قلة حيلة في مواجهة صلف الحياة وشدتها، كان يحاول التغلب على مشقة حياته اليومية ورعونتها أحياناً بالمواجهة وغالباً باللامبالاة، كانت حياته سلسلة متواصلة من حلقات كدح وشقاء فما كان يقوم من شدة إلا ويقع في أخرى أشد منها وأقسى.

*

عادة ما تتلون صباحات الريف بكل ألوان الطبيعة الزاهية، لكن في يوم رحيلهم هبت على المنطقة رياح باردة على غير عادتها قلبت موازين الطبيعة رأساً على عقب، ارتكزت شمس ذلك اليوم في كبد السماء كأنما أدركها الوهن

والغيظ من تطفل سحب ركامية علوية راحت تتخضب أكثر بالسواد حينما انخفضت قليلاً لتداعب أشعة الشمس الباهتة فتحجبها عن المنطقة، حاولت الشمس في إبعادهن من أمامها لكن كان ذلك بدون جهد يذكر كمريض يطرد ذبابة تتطاير أمام عينيه، أو أنها (الشمس) أرادت أن تستريح وترقب من فوق موقف الوداع في تلك البقعة من الأرض وتكون هي الأخرى شاهدة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.. ظلم أجبر أبا محمد المعراوي وعائلته (زوجة وطفلين) على الخروج من ضيعتهم الأم بما فيها من أهل وجيران إلى المجهول، مسَلِمين أمرهم لله، موصين مودعيهم أن يأخذوا بالهم من دارهم الصغيرة "الحيلة والفتيلة" آملين أن يعودوا إليها قريباً بعد أن ينجح أهل الخير والصلاح في وأد فتنة أجج نارها رؤوس يابسة من عائلة المكحول شجعهم عليها متلونون وضعاف نفوس لا يريدون سلاماً ولا استقراراً ولا صفاء بين البشر بعد عراك طفولي بين صبية كانوا يمرحون بلعبة الشرطي والحرامي حينما كانوا يلاحقون بعضهم بعضا ويترصدون لبعضهم في الخفايا والزوايا. "شلفة" حجر طائش (الحجر اعمى) من يد الطفل مصطفى المعراوي ابن السابعة فجت رأس ابن المكحول، دم سال على جبين الطفل المصاب أدى بأبيه الهمشري إلى الذهاب إلى بيت أبي محمد والد الطفل الضارب مهددا مزمجراً.

لم يكن الطفل مصطفى بن أبي محمد المعراوي قبل بداية حرب تشرين اكتوبر٧٣ إلا طفلاً صغيرا مولعاً كغيره من الصبيان بالألعاب الحركية

المعتادة، لكنه مع بدء الحرب وسماعه عن أهوالها بدأ يتطلع بشغف لتقليد مغامرات الكبار المشغولين بأخبار المعارك ومضاعفاتها العسكرية والاجتماعية من كر وفر وخراب وتدمير وغلاء أسعار وندرة توفر مواد غذائية في السوق، وطلبات الاحتياط الكثيرة الأمر الذي انعكس على ألعاب الصغار اليومية من خلال ابتكار ألعاب جديدة فيها روح الحماسة والمغامرة معتمدين فيها بشكلٍ رئيس على قدراتهم البدنية في خفة حركتهم وسرعة التنفيذ.

*

عائلة كبيرة وقوية تُضرب؟! وممن؟! من إحدى العائلات الصغيرة والفقيرة!

يا للعيب ويا للعار !

اعتبروها إهانة عظمى وخيانة لمن يقبل الصلح وتقبيل اللحى والشوارب.

وصل التهديد المباشر للعائلة المنكوبة من والد الطفل المضروب.. جاءهم متنمراً والشرر يتطاير من عينيه.. رجل في منتصف العمر ذو سحنة غليظة، مكور الوجه، غليظ الملامح، مفرط في السمرة، أنفه مفلطح وشفتاه غليظتان، شاربه وشعر رأسه مفرطان بالسواد.. يسير مباعداً بين قدميه بجزمة سوداء عالية الساق وفي يده عصا طويلة، وبين أصابع يده الثانية سبحة حباتها كبيرة، كان عابساً فتوعدهم بوحشية، تحدث إليهم بتكلف وبصوت عال، غرس قبضتيه في خاصرتيه في تعاظم، كان يتصفح من أمامه

بعينين تومضان بخنق غير مكظوم، منفوخ الصدر، تدل تفاسير وجهه على ضيق شديد.

حاول أبو محمد ومن كان في جانبه احتواء الموضوع وتقديم الاعتذار على ما قد حصل، لكن تعالي والد الطفل في جبروته ووكز أبا محمد بالعصا في صدره صعّد الموقف.

كان أبو محمد يبتلع الكلمة فتظهر عليه الغصة حينما كان يُقدّم اعتذاره للرجل لما بدر من ابنه الصغير وتأسفه على ما قد حصل يومها، لكن أن يتحول تنمر ابن المكحول إلى تنمر جسدي فهذا لا يمكن تحمله أبداً، لم يتمكن من تمالك نفسه. انتفخ عرقٌ أزرق غليظ في عنقه وكاد أن ينفجر من الغضب، ظهرت منه جرأة لم تكن لتظهر لو أن والد الطفل المضروب لم يُهدد ويزمجر ويرمي الإهانة تلو الأخرى في وجهه وأين.. على باب داره. لم يُدرك ابن المكحول أبداً أن رفع الصوت وتغليظ الشتيمة والمباشرة بالهجوم لا يعني أبدا انه الأقوى جسدياً وأنه على حق، لحظتها بدت وحشية أبي محمد على أصولها، أظهر بسالة تستحيل مقاومتها، كانت الحياة ثقيلة وسلسلة من المتاعب والمشاق على قلبه، وجاء أبو الولد ليزيدها على قلبه فماذا بقي له، "الشجعان لا يموتون" قالها في نفسه، ثم فقد صوابه مما رأى وسمع، فأمسك بالعصى وضربها أرضاً، عّربد والد الطفل المهاجم وزمجر واحمرت وجنتاه غيظا وكدرا وهجم على أبي محمد بصفعة قوية فرد الرجل بأقوى منها ثم رماه أرضاً

وأوسعه ضرباً مبرحا وراح يخبطه في غيظ وتشف بالغبن، وكأنما كان ينتقم فيه لعشرات من السنين قضاها في ظلم وخيبة.

كبرت القصـــة وجاء من جاء من بيت المكحول، وجاء قلة قليلة من بيت المعراوي والتقى الطرفان أمام دار أبي محمد لكن لم يحصـــل أي التماس وعراك لتدخل أهل الكلمة وشيخ الضيعة الذين خففوا من اشتعال ما ظهر في وقته ومكانه، لكن هيهات لنار الهشيم أن تهدأ قبل أن تمتد بوشي أصحاب الفتن والدسائس، فاقترح أهل الكلمة والمشورة رحيل أبا محمد وعائلته وأداً لفتنة وخوفاً من ثأر.

أيقن أبو محمد أن ذاك الرجل لم يترك للصـــلح مطرحاً رغم محاولات إمام المسجد ومعه كبار السن والقدر بالضيعة في إصلاح الحال بين العائلتين من مبدأ أن الصـــلح ســـيد الأحكام، عرض أبو محمد الاعتذار وبوس اللحى والشـــوارب، وحتى الفدية قدر المســـتطاع، لكن دون جدوى. لم ترض عائلة المكحول إلا برحيل العائلة المعتدية أو أن يتوقعوا شـــيئا غير محمود.. وأنهم سيقلبون الدنيا عليهم رأساً على عقب.

وأداً للفتنة وإطفاءً لنارها قبل أن تعم لظاها جميع أفراد عائلة المعراوي كباراً وصغارا رجالاً ونساء فتحرق أخضرهم إن وجد وتزيد بؤسهم بؤسا، كان رأي الأغلبية في خروج أبي محمد وعائلته الصغيرة من الضيعة قبل أن "يعيش

الديب وتفنى الغنم" رغم كل ما كان في الأجواء من حرب ضروس ونفحات رمضانية مباركة وقرب حلول العيد.

*

هل كان على الرجل أن يحتار في الاختيار بين الهروب من مكان جعله مغلوباً على أمره محتاراً في حاله وبين البقاء في واقع مزر أدمى قلبه وأنهك قواه، هل كان عليه التريث في الاختيار وهل كان الاختيار متاحا إليه بالأصل، ألم يقولوا "الهربة تلتين المراجال" فما بالك إن كنت مجبراً عليها..

خرج النازحون من ضيعتهم يجرون ذيول القهر والخيبة على طريق مجهولة، خرجوا بلا رغبة بلا حماس لشيء سوى نزوح مجبورين عليه، كان ينتابهم شعور الضياع من القادم، خرجوا مكسوري الجناح والخاطر في وجه عاصفة هوجاء تلفهم بلا رحمة ولا رأفة.

تخفيفاً على جمهور المودعين والنازحين، اندفعت سيارة البيك آب فجأة تقل أربعة مخلوقات بشرية مسرعة الخطى في درب النزوح صوب الشمال تاركة وراءها صوت عويل وفراغ قاتل، مثيرة وراءها خطين متوازيين من غبار خفيفة أخمدته قبل أن يعج زخاتٌ مطرية أبت السماء إلا أن تُشارك بها في وداع النازحين، أيادي الكبار والصغار كانت مرفوعة تُلوح وعيون دامعة كانت تحكي قصة محبة ووداع لبيوت ودروب وفيافي كانت يوما ما ملاذهم الآمن.

في كابين السيارة، جلس أبو محمد المعراوي في الوسط وعن يمينه زوجته سعاد، وعن يساره سائق السيارة الشهم الذي تطوع لتوصيل العائلة المنكوبة إلى كراج باصات حلب في المدينة المجاورة، بينما في الخلف وقف طفلاهما محمد ومصطفى وإلى جانبهما حقيبة كبيرة وفرشة وسلتين وصرة فُكت عقدتها عن غير قصد فتبعثرت محتوياتها في صندوق السيارة.

صمتٌ مقيت ساد داخل كابين السيارة مزقه صوتها الهادر في اندفاعها المتسارع في الطريق وكسره صوت حشرجة نسائية ونظرات متكررة لاإرادية للخلف تتلاقى فيها عيون الراحلين الدامعة مع بقايا دروب ودور راحت تصغر لهم اكثر وأكثر كلما ابتعدت السيارة الناقلة لهم عن الضيعة، بينما في الخلف راحت أيادي الصغار تُلوح لمن بقي وراءهم تعبيراً عن مشاعر لا يمكن للرائي التفريق فيها بين ما يُجبر الطفلين من دمعة على ما هم فيه من أجواء متوترة أرغمتهم دون إمهال على ترك ضيعتهم، وبين ما تدفعهما من غبطة يستطيران فيها فرحا وسرورا لركوب سيارة راحوا يتأملون فيها بدهشة الأشجار وأعمدة التيل الراكضة خلفهم إلى الوراء ويرقبون خطيّ الغبار المتصاعدة وراء السيارة.

كانت الحيرة رفيقة الراحلين في كل شيء، احتاروا أي درب نزوح يسلكون. شمالا أم جنوبا، غربا أم شرقاً، كل الاتجاهات كانت لهم متشابهة لأنهم لا يعرفون أحداً في أي مقصد يتوجهون إليه، دموع المرأة المدرارة ونحيبها المستمر

أخرجا الرجل عن صمته فصاح بها قائلاً: "هل تظنين أنني خائف منهم.. ولا ورب الكعبة، لكن الشجاعة في غير موضعها جبن، فلماذا نبقى هنا ومن نتحدى؟ وهل نحن قادرون على ذلك التحدي؟ هل نبقى لنموت إن لم يكن قتلاً فحتما سيكون قهراً ".

حين كان أبو محمد يتنفس كان يُفتت نياط القلب لفرط ما تنشر زفراته حزناً وكآبة، ماذا كان عليه أن يتحمل ليتحمل.

مرغماً ترك أبويه وهما في أشد الحاجة إليه، هل إن طال به التهجير بعيداً عنهم هل سيعود ويراهم ويأنس العيش بقربهم؟!

أم يتحمل تهجير زوجته وبُعدها عن أهلها ودارها بدون سبب فقط لأنها زوجة المشاكس والعنيد؟!

أم يتحمل طفليه الصغيرين محمد ومصطفى اللذين انسلخا باكراً عن بيئتهما، عن رفاق طفولتهما؟!

أم يتحمل نفسه ويتجّمل بالصبر بعد أن ضاقت به الأيام ذرعاً وأضرمت عليه ذيول الشدة وزادتها بذلك التهجير عن أرضه وداره الذي لتوه أكمل بنائها بمساعدة أبيه ولبشة (دهبات) زوجته؟!

هل وهل سيكون أبو محمد صابراً بما يكفي ويتحمل كل ذلك الضيق أم انه سيعود ويتحدى الظروف ويعرض نفسه وعائلته لمخاطر تبدأ بثأر وتنتهي بمغارم ونهايات لا يعلمها إلا جلت قدرته.

أي مصير كان ينتظر أبا محمد ومن حاول مؤازرته أو التعاطف معه، كيف كان لهم أن يجابهوا مخارز عائلة المكحول بعيون لم تكن جريئة إلى حد الكفاية دون أن يغمضوها وتمر سحابات الشؤم من أمامهم دون أن تفقأ عيونهم أو تقلع جذورهم من أرض نشأوا فيها وترعرعوا فيها؟!

كيف كان لهم أن يجابهوا نارا مضرمة راحت تهدد بحرق كل جميل في ضيعة الرجل ومن سار في دربه؟!

فقط درءاً لأي مخاطر متصاعدة وخوفاً على من حوله انسحب الرجل دون غيره من أرض آبائه وأجداده كحلٍ كان يتمناه أن يكون مؤقتا. لكن هيهات هيهات لنار حارقة زاد في لهيبها مساندو باطل ومراؤون صفقوا للظالم وساندوه في غيه وجبروته أن تهدأ ولجذوتها أن تُطفأ دون أن تحقق ما أراد لها مشغلوها من تهجير الرجل وعائلته من ضيعته وبيته فتصبح أيامه أكثر يبابا.

❊❊❊

(٢)

يتذكر الجميع يوم الرحيل كيف كانت الحيرة أمام الراحلين في كل شيء، تاهت الدروب أمامهم، احتاروا بين اللجوء إلى أجواء مدينة مترامية الأطراف كمدينة حلب في الشمال لا يعرف قاطنوها بعضهم بعضا فيها يضيع الفرد وينسى نفسه في زحمة الحياة ومشاغلها، أم إلى مدينة صغيرة أو إلى بلدة أصغر حجماً وأقل صخباً.

معذبون هم الراحلون، يغادرون أرضهم على عجل لكن هي لم تغادرهم، يلتحقون بأرض غير أرضهم وسماء غير سمائهم، تتيه بهم الدروب، وتتعدد أمامهم الطرقات والمهالك، في تهجيرهم هم بلا قريب ولا صديق، هم أشبه بسفينة ممزقة الشراع أمام إعصار، في قلوبهم حقاً تعيش آلاف المآسي.

في السادسة والثلاثين من عمره تهجر الرجل مرغماً من ضيعته مع عائلته قاصدين حلب المدينة التي أمضوا فيها أياماً قليلة كضيوف عند صديق أحد أقاربهم، ثلاثة أيام فترة الضيافة كانوا فيها على مفترق طرق، كانت لهم قدراً آخر في الحيرة والارتباك، رغم طيبة أهل بيت مستضيفهم وترحابهم الحار بهم طيلة وجودهم عندهم إكراما لقريبهم الصاحب ورأفة بحالهم المعتر، ضاق صدر الرجل واحتار في أمره، فهم أربعة أشخاص وعائلة مستضيفهم كذلك

في شقة كانت نظيفة جدا لكنها ضيقة كعادة بيوت المدينة التي يُحسب لكل شبر فيها ألف حساب.

عرف الرجل أن في المدن وخاصة الكبرى تتوفر فرص عمل أكثر وتنوع لكن ليس لمثله، ماذا سيعمل فيها وكيف يتعوّد على صخبها وتعالي البعض من أهلها على القادمين من الريف؟! هل كان عليه ان يُغير لباسه العربي إن أراد أن يعيش بالمدينة فيلبس بنطال الشلصطو والقميص الملون كي يتلائم مع الدارج وقتئذ في المدينة كي لا يكون ملفتا لانتباه من يمر من جنبه في الشوارع والأزقة، أتعبه ذلك في أيامه الأولى له فيها فكيف إن استمر.

عرف أنَّ المدن الكبرى تخطف أهل الخبرات وتستقطب رؤوس الأموال من الريف والمدن الصغرى، فعلى ماذا تخطفه هو. فإذا ما سطع نجم أحد من أبناء الريف أو المدن الصغرى في مصلحة أو اختصاص أو اتسعت تجارته وعلا شأنه أغرته أقرب مدينة كبيرة له وهيجت فيه حب السمو فترك من أجلها بلدته واتجه إلى مدينة كبيرة كمدينة حلب في الشمال السوري أو إلى أكبر منها كالعاصمة دمشق إذا كان ذاك الشخص أعلى صيتا وأرفع درجة، لذا كلما كبرت المدينة أكثر كلما استحوذت على نصيب أكبر من الخبرات والمكاسب والشهرة والمناصب. لكن بالنسبة إليه كان الوضع مختلفاً تماما فلا خبرات ليعمل بها ولا شهادات ليتوظف على أساسها، ولا رأس مال ليُتاجر فيه.

صحيح أن أبا محمد رجل فلاح بسيط لم يجلس في طفولته على مقاعد الدرس والتعليم ولم يتلق أياً من علومها إنما كان ذواقا للكلمة العذبة منذ أيامه الأولى عندما كان يحضر جلسات ختم القرآن في مسجد ضيعته الوحيد التي علمته بالإضافة لقراءة القرآن نثر الكلمات الجميلة بدون وزن ولا تفعيلة وقراءة قصص الزير سالم والملك الظاهر بيبرس وألف ليلة وليلة. لكن كل هذا لن يشفع له في إيجاد عمل مناسب له في زحمة المدينة.

تفاجأ النازحون بحلب بعد وصولهم إليها، رأوها عكس ما توقعوا، حسبوا أنها تحتضن الجميع وفيها الحياة أفضل، نزحوا من دارهم ومن ضيعتهم وعيشتهم الكئيبة ليقعوا بين كتل إسمنتية بلا أهل ولا عمل، كأنهم جاءوا من تحت الدلف لتحت المزراب. للأسف زاجتهم المدينة حيرة وكآبة، كانت لهم كأنها تخفي وراءها لهم الكثير من الألم والضياع، كانت لهم مكاناً لا يشبههم ولا يرون أنفسهم فيه خاصة أنه بدأ يتعامل معهم بفوقية.

هل كان على الراحلين إلا أن يفكروا من جديد بحياتهم الجديدة. فأبو محمد ابن ريف ومن حقه أن يتطلع إلى مكان يرتاح فيه، يعيش فيه بتقدير واحترام متبادل، يشعر فيه بهدوء بين أحضان طبيعة رحبة فيها سهل أو جبل بعيدا عن ضجيج المدينة.

بالبداية، كانت للراحلين كل الاتجاهات متشابهة لأنهم لا يعرفون أحداً في أي مقصد يتوجهون إليه كما أنهم لا يجيدون أي عمل سوى عمل مياومة في حصاد أو قطاف زيتون أو أعمال عادية أخرى تنتشر عادة في الريف ولا تتطلب أي خبرات عملية، لهذا واستهداء بنصح بعضهم فضّلوا الاستقرار في احدى بلدات المحافظة الخضراء يبدأوا مسعاهم في الاستيطان من جديد كون أعمال الزراعة تنتشر في الريف ولا تتطلب خبرة وافية ولا شهادات خاصة بعد أن جاءتهم النصيحة التي كانت لهم أشبه بـ "رُب صدفة خير من ألف ميعاد" انتشلتهم من تشتت فكري كانوا قابعين فيه..

رأى الرجل أن المدينة ليست لأمثالهم، فقبل وصولهم إليها أصبحوا أشبه بكرة تتقاذفها الأيادي والأرجل في ملعب سعته البلد، في وصولهم إليها أربكتهم الحيرة أكثر، لذا بناءً على نصائح بعضهم ومع غبش الفجر الأصفر راح يستعجل ارتفاع صباح يومه الثالث له في حلب. قبل أن يركب باصاً متجها إلى مقصده في المحافظة الخضراء مرت من جواره في منطقة باب الفرج القريب من كراج الانطلاق غادة هيفاء مصبوغة الوجه عارية الساقين واليدين تداعب الريح أطراف ثوبها فيرتفع إلى ما فوق ركبتيها بكثير تتراقص فوق كعبين عاليين توقعان على رصيف الشارع إيقاعاً ذا رنين. اندهش الرجل لما رأى وهو ابن الريف المحافظ.. قال في نفسه: كيف لي أن أعتاد على رؤية هكذا مناظر إن بقينا في المدينة؟! كيف سيكبر أولادي في هكذا جو؟!

تابع الرجل طريقه إلى الكراج دون تراجع أو ندم مستنكراً ومستغفراً، وتساءل في نفسه وأجابها على الفور.. كيف لنا أن نعيش هنا ونحن نريد الستر والحشمة، علينا بالريف فهو لنا الأفضل.

***

(٣)

بناءً على نصح معارف مستضيفهم في حلب، نزل في بلدة افس عند موقف محمد ديب الخوجة واستلم طريقه متوجها غرباً إلى سرمين ومنها جنوباً إلى مقصده.. النيرب، كان دربه خاليا من أي سيارات أو عربات، على جانبي الطريق انتشرت أراض زراعية تربتها حمراء قانية تتخللها أشجار عارية كالتين واللوزيات، ومكسية كالزيتون، لم تكن السماء يومئذ صافية، كان فيها غيوم قليلة لكنها مذعورة تتسابق دون هوادة في جميع الاتجاهات كأن الريح كانت تتقاذفها أينما تشاء، كان المطر قد بدأ لتوه يتساقط رزازاً فتستقر حبات منه على رأسه الملتف بشملة بيضاء (عصابة) فتترك عليه حبات ماسية تُعطي الرجل شعوراً بالانتعاش، كانت أفكاره مبددة كما لو أنها سحابات واطئة عصفت بها ريح مجنونة جعلته يحلم بأمل قريب، في دربه كان يمشي الهوينا وكأن التعب قد هده هدا، فجأة حرك رأسه فصافحت عيناه السماء الهاطلة وقال "يا رب" فوجد نفسه يُسرع الخطى وقال في نفسه (الله يبعث الخير.. إن شاء الله.. القادم أجمل).

في الساحة العامة أو ما يقال عنها "غرب الضيعة" سأل الرجل عن المختار ثم ذهب إليه في داره الذي رحّب به أحسن ترحيب وبطيبة خاطر قدم له

مساعدته ونصيحته وطمأنه أنه سيسعى لإيجاد بيتاً وعملاً له من خلال معرفته الوافية بأهله وناسه، وقتها راحت أحلام الرجل تتراقص من جديد أمام عينيه ضاحكة مستبشرة تشع من حولها أحلام جميلة ببكرا أحلى، وفعلا كان له ذلك خلال أيام قليلة.

*

بعد رحليهم إلى النيرب.. أرض الدهب كما أسماها أبو محمد المعراوي، لم يترك الرجل عملا متاحا إلا عمل فيه، قضى فيها سنوات طِوال مشتغلاً في زروع وكروم الآخرين مقابل المال، عاون الأهالي في أفراحهم ومناسباتهم، شارك في حفر القبور وتقطيع الأحجار.

بعد انتهائه من عمله اليومي كان له جلستان اعتاد عليهما خاصة بعد أن هده التعب وأضناه العمل الشاق لسنين طويلة امتدت لأكثر من عشرين، أولهما كانت مجالسة رجال البلدة في جلستهم الصباحية بعد الخروج من صلاة الفجر بالساحة العامة "غربي الضيعة" على دكة إسمنتية غرب الدكاكين يتبادلون فيها الحديث عن المشتركات من الأمور الهامة وبين جد ومزاح يقضون صباحاتهم المتلونة بأجواء المنطقة قبل أن يعودوا أدراجهم إلى بيوتهم لإيقاظ أفراد أسرهم كي يبدأوا يومهم والمضي في قضاء حاجاتهم داخل البلدة أو خارجها.

تتكرر تلك الجلسة الجماعية بعد العصر وحتى المغيب، حيث تمتلئ الساحة العامة بالناس الجالسين والواقفين والسائرين باتجاهات متعددة، جمعتهم محن واحدة وآمال مشتركة، جاءوا للساحة ليشغلون فراغهم المقيت ويرقبون كل حركة ودبيب في المكان يستمعون إلى أبواق السيارات المارة وأصوات الباعة الجوالين ويتفرجون على كل من هَبّ ودَبّ من الجالسين والعابرين لهدف أو بدون، من هؤلاء المجتمعين بالساحة من كان صاحب دكان قد رش ماءً أمام باب حانوته وجلس ينتظر زبائناً قادمين، ومنهم من كان بلا شغلة ولا مشغلة جالساً على رصيف ممدود أمام تلك الدكاكين أو على أحجار واطئة يشبكون أصابعهم حول ركبهم ثم يدفعون ظهورهم إلى الخلف ليسندوا بها جدراناً ألفتهم وهم يتفيؤون ظلالها يشهدون الأنشطة التجارية والاجتماعية لكن بدون أي إضافة من طرفهم، معظم أولئك المجتمعين بالساحة العامة لا يفعلون شيئًا إلا مراقبة المارين والمارات بنظرات فاحصة بعض منها وقحة يستقبلونهم من بعيد ويبقون يتفرسون في وجوهم ويدققون في ملابسهم وحركاتهم حتى يتخطوهم متناسين ضرورة إعطاء الطريق حقه.

في الصيف تكتظ الساحة العامة بشركات تسويق التين الطازج بينما في الشتاء يكثر فيها الحديث عن الطقس (النو) وتوقعاته وقدوم المطر وأعمال الزراعة والفلاحة من حرث، وبذار، ونمو زرع، وقطاف زيتون، وتقليم أشجار.